

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية.

- تفسير الرازي نموذجاً -

أ.مراد بلخير

جامعة تلمسان.

مقدمة:

يُعتبر القرآن الكريم المصدر الأول من مصادر المعرفة في المجال التداولي الإسلامي، نظراً لاشتماله على رؤية الكون والحياة، والتصورات المؤطرة لحركة الإنسان وتعامله مع مفردات الكون وقراءاته لها، وعلى أزمان متعاقبة بقي القرآن الكريم هو المهيمن على كل المعارف والعلوم البشرية عند المسلمين، وكان علم التفسير هو الباب الذي ولج منه المسلمون على علوم الكون والحياة التي أسسها التجربة والاكتشاف؛ فانفتحوا على قضايا كونية من خلال التأمل في الآيات، والبحث عن تفسير لها يوافق المشاهدات الكونية.

ومن هنا دعت الحاجة إلى بحث موضوع: أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية، لتسليط الضوء على دور علم التفسير الريادي من علوم الشرع في تبني وجهة الانفتاح على العلوم التجريبية.

هذا، وقد كان أساس تدارس هذا الموضوع قديماً من خلال تفسير القرآن الكريم بمكتشفات العلم التجريبي وما توصلت إليه كل حضارة، وهو ما اشتهر بالتفسير العلمي، حيث اختلفت فيه آراء العلماء والباحثين، وكثر فيه

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجا-.....أ.مراد بلخير

التأليف بين مؤيد ومعارض، منذ عصر الغزالي (ت505هـ) في "إحياء علوم الدين"، ثم تأيد هذا النهج بفخر الرازي (ت606هـ) بما ذكره من استطرادات في تفسيره، حتى قيل عنه نقداً لهذا المسلك: "فيه كل شيء إلا التفسير". وما هي إلا محاولة لصد العقل عن الانفتاح في التفسير على معارف أخرى، وسيأتي في هذه الدراسة تحقيقٌ لخلفيات هذا الحكم. وهكذا تداولت الرؤى على هذا المسار في التفسير إلا أنه عملياً لم يتوقف ولم ينضب مَعِينُهُ، وهذا انطلاقاً من أصل مهم، وهو أن كل علم أو معرفة تنشأ بعيداً عن روح القرآن إلا وتكون لها نتائج سلبية على الإنسان والكون، وبحثُ جهود المفسرين في الاشتغال بمنهج التفسير العلمي يكشف أن اعتماده لم يكن بالشأن الحديث، بل كان نتاجَ انفتاحٍ على حركة العلوم التجريبية في كل عصر من عصور أولئك المفسرين.

فما هي إذن مقومات نجاح المفسرين في وصولهم إلى إثراء حقيقي وفَعَالٍ لعلم التفسير مع العلوم المبنية على التجربة؟ وهو ما تسعى المداخلة للإجابة عنه والتفصيل في قضاياها، من خلال العناصر الآتية:

مقدمة:

1- التعريف بالمصطلحات:

أ - التفسير:

ب- العلوم التجريبية:

2- اهتمام المسلمين بالعلوم التجريبية:

3- حقيقة بيان القرآن لكل شيء:

4- شمولية علم التفسير للعلوم الأخرى:

5- التفسير العلمي عند المفسرين:

أ- تعريف التفسير العلمي:

ب- علاقة التفسير العلمي بالمنهج التجريبي:

ج- اهتمام المفسرين بمنهج التفسير العلمي:

6- انفتاح تفسير الرازي على العلوم التجريبية:

- أ- القيمة العلمية لتفسير "مفاتيح الغيب":
 - ب- القرآن هو مصدر العلوم عند الرازي:
 - ج- مصادر العلم التجريبي عند الرازي:
 - د- منهج قبول العلم التجريبي أو رده عند الرازي:
- 7- تطبيقات من تفسير الرازي في الانفتاح على العلوم التجريبية:
- أ- آيات الأفلاك والكواكب:

ب- آيات تزين السماء:

ج- آية إنزال الميزان والحديد:

د- آية الخلق في ظلمات ثلاث:

خاتمة: وفيها تلخيص لنتائج البحث.

1. التعريف بالمصطلحات:

أ- التفسير:

تعريفه: لغة: التفسير مصدر فسر بتشديد السين الذي هو مضاعف فسر بالتخفيف، من فسر الشيء، يفسره ويفسره فسراً، وفسره: أبانه¹. والفسر: الإبانة وكشف المغطى، أو كشف المعنى المعقول²، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:33]، قال ابن عطية: «وأفصح بياناً

¹ - ابن سيده علي بن إسماعيل المرسى - المحكم والمحيط الأعظم - ت: عبد الحميد هنداي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط: 1421هـ/2000م - ج: 08/ص: 480.

² - الزبيدي محمد مرتضى الحسيني - تاج العروس من جواهر القاموس - ت: حسن نصار - مطبعة حكومة الكويت - الكويت - ط: 02-1407هـ/1987م - ج: 13/ص: 323.

و: الأصبهاني - معجم مفردات القرآن - ت: يوسف البقاعي - دار الفكر - بيروت - لبنان - 1432هـ/2010م - ص: 287.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

وتفصيلاً¹. وقال ابن فارس (ت:395هـ): « الفاء والسين والراء تدل على بيان شيء وإيضاحه »².

فمادة (ف س ر) في اللغة تدور: حول أصل واحد يدل على بيان شيء وإيضاحه.

اصطلاحاً:

عرّفه ابن جُزي (ت:741هـ) بأنه: « شرح القرآن وبيان معناه، والإفصاح بما يقتضيه بنصّه أو إشارته أو نجواه »³.

وفي تعريف أبي حيان الأندلسي (ت:745هـ): « هو علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تُحمل عليها حال التركيب، وتتمت ذلك »⁴.

وهو عند عبد العظيم الزرقاني (ت:1367هـ): « هو علم يبحث فيه عن القرن الكريم من حيث دلالاته على مراد الله تعالى قدر الطاقة البشرية »⁵.

¹ - ابن عطية عبد الحق بن غالب-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز-ت:عبد السلام عبد الشافي-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط:1422هـ/2001م-ج:04/ص:210.

² - ابن فارس أحمد بن زكريا-معجم مقاييس اللغة-ت:عبد السلام هارون-دار الفكر-بيروت-لبنان-1399هـ/1979م-ج:04/ص:504.

³ - ابن جزي محمد بن أحمد الكلبي-التسهيل لعلوم التنزيل-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط:1415هـ/1995م-ج:01/ص:09.

⁴ - أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي - تفسير البحر المحيط-ت: صدقي محمد جميل - دار الفكر - بيروت-ط:01-1420 هـ-ج:01/ص:261.

⁵ - الزرقاني محمد عبد العظيم-مناهل العرفان في علوم القرآن-دار الكتاب العربي-بيروت-ط:01-1415هـ/1995م-ج:02/ص:06.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

وقال ابن عاشور (ت:1393هـ): التفسير « هو اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسع »¹.
فنلاحظ أن التعاريف قد اتفقت على التأكيد على إيضاح المعنى وبيانه، وهو محل الارتباط بالجانب اللغوي، ثم إبراز محال هذا البيان من مفردات وتراكيب الألفاظ القرآنية.

ب- العلوم التجريبية:

العلم التجريبي هو العلم القائم على البحث التجريبي الذي يستخدم التجربة في فحص واختبار فرض معين²، وموضوعه هو الوقائع الخارجية للوصول إلى وصفها عن طريق العقل³.

فالباحث التجريبي لا يقتصر في بحثه على مجرد وصف الظواهر التي تتناولها الدراسة كما هو الشأن في المناهج الأخرى، وهو أيضا لا يقتصر على مجرد التأريخ لواقعة معينة في الماضي؛ وإنما يدرس متغيرات هذه الظاهرة، ليصل إلى نتائج متوافقة أو متغايرة مع فرضه الذي ابتدأ به.

خطوات المنهج التجريبي:

تخضع خطوات البحث التجريبي إلى ثلاث مراحل أساسية ومشتركة في سائر الدراسات التجريبية⁴:

¹ - ابن عاشور محمد الطاهر-تفسير التحرير والتنوير-دار سحنون-تونس-د.ت-ج:01/ص:11.

² - عدس عبد الرحمن وآخرون-البحث العلمي: مفهومه، أدواته، أساليبه-دار أسامة-الرياض-السعودية-2005م-ص:310.

³ - عبد الرحمن بدوي-مناهج البحث العلمي-وكالة المطبوعات-الكويت-ط:03-1977م-ص:128.

⁴ - ينظر: العيسوي عبد الفتاح محمد-مناهج البحث العلمي في الفكر الإسلامي والفكر الحديث-دار الراتب الجامعية-1997م-بيروت-لبنان-ص:94-106.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

أ- **الملاحظة:** وهي عملية توجيه الحواس والانتباه إلى ظاهرة معينة أو مجموعة من الظواهر رغبةً في الكشف عن صفاتها وخصائصها، توجُّلاً إلى كسب معرفة جديدة عن تلك الظاهرة أو تلك الظواهر المراد دراستها.

ب - **الفرضية:** وهي عبارة عن إجابة احتمالية، أو هي تفسير مؤقت للظاهرة، وقد لا يعتمد الباحث على فرضية محددة عندما لا يصل إلى تحديد دقيق للظاهرة، يقول عبد الرحمن بدوي: «التجريب نوعان: نوع يبدأ من فرض معين، وآخر لا يبدأ من فرض، لأنه لم يتم بعدُ تحديد دقيق للتفسير الذي يمكن أن يوضَّع للظاهرة»¹.

ج - **التجربة:** هي فحص يشتمل على معالجة مضبوطة، يقوم بها الباحث لدراسة متغيرات معينة.

2- اهتمام المسلمين بالعلوم التجريبية:

حظي العلم التجريبي باهتمام كبير من قبل علماء الإسلام، وكان ذلك متكيفاً مع الحاجات الشرعية لأهل الإسلام في كل زمن ومصر، كالحاجة إلى تحديد اتجاه القبلة أو المقادير الشرعية، وبكثرة الاهتمام وتوالي الجهود تكونت علوم قائمة بذاتها خادمة لنظيرتها الشرعية، كعلم "الجغرافيا" الذي كان يسمى بتقويم البلدان، و"علم الاجتماع" الذي كان يسمى بالعمرانيات، و"علم الجيولوجيا" الذي كان يسمى بعلم الصخور وطبقات الأرض، وكان اسم علم الفيزياء "علم الطبيعة"، وجملة هذه العلوم كانت تسمى بالعلوم الحكيمة.

ويذكرون أيضاً "علم التشريح" وهو من علوم الطب التي برع فيها المسلمون، يقول صاحب كتاب "أبجد العلوم" عن هذا العلم: «وموضوعه أعضاء بدن الإنسان، والغرض المنفعة .. وكتب التشريح أكثر من أن تحصى»²،

¹ - عبد الرحمن بدوي - مناهج البحث العلمي - ص: 137.

² - القنوجي صديق بن حسن - أبجد العلوم - ت: عبد الجبار زكار - منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق - سوريا - 1978م - ج: 02/ ص: 149.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجا-.....أ.مراد بلخير

ثم ذكر مؤلفات أبي بكر الرازي (ت:311هـ) وابن سينا (ت:427هـ)، وهو يدل على انتشار هذا العلم التجريبي ومدى تقبله والاهتمام به.

ومن البارزين في علوم الحكمة أبو الحسن المسعودي (ت:345هـ)، الذي كان أول من قال بكروية الأرض، وقال كذلك بدورانها حول الشمس؛ قال في كتابه مروج الذهب: « وذكروا أن الأرض مستديرة ومركزها في وسط الفلك، والهواء محيط بها من كل الجهات، وأنها عند فلك البروج بمنزلة النقطة قلة، وأخذوا عمرانها من حدود الجزائر الخالدات في بحر أوقيانوس الغربي، وهي ستة أجزاء عامرة إلى أقصى عمران الصين فوجدوا ذلك اثني عشر ساعة، فعلموا أن الشمس إذا غابت في أقصى الصين كان طلوعها على الجزائر العامرة المذكورة التي في بحر أوقيانوس الغربي، وإذا غابت في هذه الجزائر كان طلوعها في أقصى الصين، وذلك نصف دائرة الأرض »¹، وكذلك قال بكروية الأرض كثير من علماء الفلك المسلمين.

وذكر الشيخ الوقي في كتابه "تلك حدود الله" إن علماء المسلمين هم أول من وضع قواعد الكهرباء التي بنى عليها " كيرت " مباحثه، وأول من اخترع بيت الإبرة "البوصلة"، وكانوا كذلك أول من صنع البندق بغرناطة، وأول من صنع البارود، وأول من اخترع الساعة ذات البندول والعجلة².

وكذلك ابن خلدون (ت:808هـ) الذي يعتبره الباحثون رائد علم الاجتماع، وغيره كثير من علماء الإسلام الذين يثبتون لهم أوليات في علوم تجريبية شتى، نلتمس من أغلبهم خلفية شرعية هي التي كانت الدافع والمحفز على الابتكار والإبداع في ذلك العلم.

¹ - المسعودي أبو الحسن على - مروج الذهب ومعادن الجوهر - ت: أسعد داغر - دار الهجرة - قم - إيران - 1409هـ - ج: 01/ ص: 101.

² - ينظر: الوقي إبراهيم أحمد - تلك حدود الله - وزارة الشؤون الدينية - قطر - 1397هـ/ 1977م - ص: 18.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

هذا، ويذهب الباحثون في تاريخ العلوم إلى أن علماء المسلمين هم أول من استنبط المنهج التجريبي، حيث اكتشفوا دور التجربة في البحث العلمي وعالجوا خطواتها¹، تبعاً للآيات التي تحث على النظر في الكون والتأمل في متغيراته، كقوله تعالى: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات:21]، وقوله: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية:17-20].

3- حقيقة بيان القرآن لكل شيء:

وصف الشاطبي (ت:790هـ)، القرآن أن فيه بيان كل شيء، فقال: « القرآن فيه بيان كل شيء .. فالعالم به على التحقيق عالم بجمللة الشريعة، ولا يعوزه منها شيء »²، وبرهانه على هذه الأمر أن « لا أحد من العلماء لجأ إلى القرآن في مسألة إلا وجد لها فيه أصلاً »³.

ثم استدل بمجموعة من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل:89]، وقوله: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:38].

وتعتبر هذه المسألة التي أثارها الشاطبي أساساً لصحة إدخال المفسر لمناحي علوم الكون والنفوس في تفسيره، وذلك أن الآيات جاءت بوصف العموم في بيان القرآن الكريم لكل شيء دون تخصيص، حتى قال السيوطي

¹ - ينظر: العيسوي عبد الفتاح محمد-مناهج البحث العلمي في الفكر الإسلامي والفكر الحديث-ص:205.

² - الشاطبي أبو إسحاق - الموافقات في أصول الأحكام-ت:محمد حسنين مخلوف-دار الفكر-بيروت-لبنان-د.ت-ج:03/ص:218.

³ - الشاطبي - الموافقات في أصول الأحكام-ج:03/ص:219.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

(ت:911هـ): « قد اشتمل كتابُ الله على كل شيء. أمّا أنواع العلوم؛ فليس منها باب ولا مسألة هي أصلٌ إلا وفي القرآن ما يدل عليها »¹.

ولزيادة بيان أن هذا العموم غيرٌ مختص بعلوم الشرع قال: « .. وقد احتوى على علوم أخرَ من علوم الأوائل، مثل: الطب، والجدل، والهيئة، والهندسة، والجبر، والمقابلة، والنجامة، وغير ذلك »². ثم شرع في التدليل لكل علم من تلك العلوم بما يوافقه من الآيات ولو إشارةً أو إيماء.

أما غيره من المفسرين فيذهبون إلى أن الآيات من قبيل العموم الذي أريد به الخصوص، قال ابن الجوزي (ت: 597هـ): « فأما قوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ شَيْءٍ آيَةٌ ﴾ [النحل:89]، فقال العلماء بالمعاني: يعني لكل شيء من أمور الدين، إما بالنص عليه، أو بالإحالة على ما يوجب العلم، مثل بيان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو إجماع المسلمين »³.

وقال الألوسي (ت:1270هـ): « والمراد من ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ على ما ذهب إليه جمع : ما يتعلق بأمور الدين، أي بياناً بليغاً لكل شيء يتعلق بذلك »⁴.

وقال ابن عاشور (ت:1393هـ): « و ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يفيد العموم إلا أنه عموم عرفي في دائرة ما لمثله تجيء الأديان والشرائع: من إصلاح النفوس، وإكمال الأخلاق، وتقويم المجتمع المدني، وتبيين الحقوق، وما تتوقف عليه الدعوة من الاستدلال على الوحدانية وصدق الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وما يأتي في

¹ - السيوطي جلال الدين - الإكليل في استنباط التنزيل - ت: سيف الدين عبد القادر الكاتب - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط: 01-1401هـ / 1981م - ص: 18.

² - السيوطي جلال الدين - المرجع نفسه - ص: 16.

³ - ابن الجوزي جمال الدين أبو الفرج - زاد المسير في علم التفسير - ت: عبد الرزاق المهدي - دار الكتاب العربي - بيروت

ط: 01-1422هـ - ج: 02/ص: 578.

⁴ - الألوسي محمود أبو الفضل - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - د.ت - ج: 14/ص: 214.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

خلال ذلك من الحقائق العلمية والدقائق الكونية، ووصف أحوال الأمم، وأسباب فلاحها وخسارها، والموعظة بآثارها بشواهد التاريخ، وما يتخلل ذلك من قوانينهم وحضاراتهم وصنائعهم.

وفي خلال ذلك كُله أسرارٌ ونكت من أصول العلوم والمعارف، صالحة لأن تكون بيانا لكل شيء على وجه العموم الحقيقي إن سلك في بيانها طريق التفصيل، واستُثير فيها بما شرح الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وما قفاه به أصحابه وعلماء أمته ..¹.

والذي يجمع بين الرأيين هو ما قرره الشاطبي (ت:790هـ) قبل حديثه عن بيان القرآن لكل شيء، حيث بناه على أن القرآن أتى لبيان الكليات التشريعية، ولم يكن شأنه الاعتناء بالجزئيات إلا تبعا لكلياتها، وبقي ما يتحدث عنه العلماء من تفسير قضايا الكون استمدادا من الآيات، فيتم تخريجها على أنها خادمة لأصل شرعي، وهو الإشارة إلى وسائل الهداية من الظواهر المتنوعة للكون المنظور، وما تم تفصيله من تلك الظواهر تبعا لمكتشفات العلوم التجريبية إنما يضبط في هذا الأصل خدمة الفرع لأصله، وهو مقتضى كلام ابن عاشور السابق.

4- شمولية علم التفسير للعلوم الأخرى:

إن المتتبع لنشأة علوم الشرع يجد أنها خرجت من بوتقة حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهو المعلم الأول للأمة، وكان إلى جانب بيان سنته يُفصل لهم ما يحتاجونه من تفسير الآيات، فاشتمل بذلك تفسير القرآن على البيان النبوي، وهكذا تطورت مناهج التفسير وأدواته خادمة لعلم التفسير.

ويُعتبر علم التفسير ذا أهمية بالغة في منظومة علوم الشرع لشرف موضوعه، وهو كتاب الله تعالى، ومن هنا كانت عناية المسلمين به لا تُضاهى بأي علم آخر. وهذه العناية نجد بداياتها منذ نزول القرآن على نبينا محمد-صلى الله عليه وسلم-، حيث كان الصحابة يسألونه عن ما أشكل عليهم من معاني

¹ - ابن عاشور محمد الطاهر - التحرير والتنوير - ج:14/ص:253.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

الآيات، ثم بعد وفاته -صلى الله عليه وسلم- لجأوا في تفسير كلام الله تعالى إلى ما نقلوه من الأحاديث النبوية التفسيرية، وإلى الشعر العربي، يستنبطون من كلام العرب دلائل الكلمات القرآنية مع عنايتهم بقرائن أحوال نزول الوحي، وقد وصفه البيضاوي (ت:685هـ) بقوله: « علمُ التفسير الذي هو رئيس العلوم الدينية ورأسها، ومبنى قواعد الشرع وأساسها »¹. فكان اهتمام العلماء بغيره من العلوم خدمةً له، وتفرعاً على كلياته.

والناظر في عمل المفسرين يجد أن هدفهم هو الكشف عن معاني مستجدة لاحت لهم من تدبر الكتاب العزيز ودراسته، وكذا القيام بدور الاستنباط من الآيات على حسب أصول وقواعد حدّدها العلماء. يقول الغزالي (ت:505هـ) في بيان مكانة علم التفسير بالنسبة إلى غيره من العلوم: « علم التفسير عزيز بالنسبة إلى تلك العلوم؛ فإنه لا يُراد لها، بل تلك العلوم تراد للتفسير، وكل هؤلاء الطبقات إذا قاموا بشرط علومهم فحفظوها وأدّوها على وجهها؛ فيشكر الله سعيهم وينقي وجوههم .. والمفسر المقتصر في علم التفسير على حكاية المنقول سامع ومؤدّ »².

فجراحة علم التفسير وعلو منزلته على غيره إنما تتأتى من حيث إن العلوم الأخرى خادمة له ومُتَوَجِّهَةٌ إليه، وبذلك كان من يهتم بجمع الأقوال في التفسير غير مؤد لغرض التفسير على تمامه، ما لم يوظف علوماً أخرى في تفسير الآية.

وإذا رأينا أن المفسرين قد استعانوا بعلوم الشرع الأخرى كعلم الحديث لتحريّر أسانيد الرواية التفسيرية، وعلوم اللغة لفهم ألفاظ الوحي، وغيرهما من

¹ - محيي الدين شيخ زاده - حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط: 01-1419هـ / 1999م - ج: 01/ص: 20.

² - الغزالي أبو حامد - جواهر القرآن ودرره - ت: محمد رشيد القباني - دار إحياء العلوم - بيروت - لبنان - ط: 01-1985م - ص: 38.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

علوم المقاصد والوسائل؛ فنستخلص أن علم التفسير تمكن من احتواء غيره فيه؛ فكانت له مكانة الصدارة والشمول.

5- التفسير العلمي عند المفسرين:

أ- تعريف التفسير العلمي:

اشتهر في ساحة التفسير لون جديد من ألوان التفسير يعتمد على تفسير الآيات التي تتحدث عن الكون على وفق مكتشفات العلم التجريبي ونظرياته، وهو ما اشتهر بـ"التفسير العلمي".
ومن تعريفات الباحثين له:

تعريف الأستاذ أمين الخولي (ت:1385هـ)، قال: « هو التفسير الذي يُحكِّم الاصطلاحات العلمية في عبارة القرآن ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها»¹. وهو نفسه الذي اعتمده الشيخ محمد حسين الذهبي (ت:1398هـ) في كتابه "التفسير والمفسرون"².

وعرّفه الشيخ محمد الصباغ بأنه: « تحكيم مصطلحات العلوم في فهم الآية، والربط بين الآيات الكريمة ومكتشفات العلوم التجريبية والفلكية والفلسفية »³.

وعرفه فهد الرومي بعد تتبع التعريفات السابقة، بقوله: « المراد بالتفسير العلمي: هو اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم الكونية

¹ - أمين الخولي - التفسير: نشأته، تدرجه، تطوره-ت: إبراهيم خورشيد-دار الكتاب اللبناني- بيروت-لبنان-ط: 01-1982م-ص: 49.

² - ينظر: الذهبي محمد حسين- التفسير والمفسرون- مكتبة وهبة- القاهرة-مصر-د.ت- ج: 02/ص: 349.

³ - الصباغ محمد بن لطفي - لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير-المكتب الإسلامي- بيروت-لبنان-ط: 03-1410هـ/1990م-ص: 293.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

ومكتشفات العلم التجريبي، على وجه يظهر به إعجاز القرآن يدل على مصدره، وصلاحيته لكل زمان ومكان»¹.

أما الدكتور عدنان زرزور فعرفه بأنه: «الاستناد إلى حقائق العلم التجريبي ونظرياته في شرح آيات الطبيعة وخلق الإنسان»².

والذي يظهر من التعريفين الأولين أنهما احتكما إلى خلفية المنع فوظفا مصطلح التحكيم، وهو يشير إلى أن الاصطلاحات العلمية هي الحاكمة على النص القرآني، بخلاف التعريفين الآخرين الذين يكشفان عن توافق معنى الآية مع المكتشف العلمي، وهو المناسب لمقام التفسير بتلك المصطلحات والنظريات.

فالتفسير العلمي هو في النهاية اجتهاد في الوصول لمعنى الآية؛ فهو يحتمل القبول والرد، وهذا اعتباراً بأن الله سبحانه وتعالى ملأ كتابه بالبحث على سلوك طريق العلم والنظر المفضي إلى تسخير الكون، وذاك من خلال الإشارات الكثيرة لكيفية خلق السماوات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، وكيفية أحوال الضياء والظلام، وأحوال الشمس والقمر والنجوم، وذكر هذه الأمور في أكثر السور وكررها وأعادها مرة بعد أخرى، فلو لم يكن البحث عنها والتأمل في أحوالهم جائزاً لما ملأ الله كتابه منها.

ب- علاقة التفسير العلمي بالمنهج التجريبي:

يكشف العلماء أن غاية التفسير العلمي هي بيان إعجاز القرآن³ من خلال تفسيره على ضوء المكتشفات العلمية التي لم يسبق إليها البشر، وكان القرآن

¹ - الرومي فهد بن عبد الرحمن - اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري-رسالة دكتوراه-كلية أصول الدين-1404هـ/1405هـ-ج: 02/ص: 591.

² - عدنان زرزور- علوم القرآن وإعجازه-دار الأعلام-عمان-الأردن-ط: 01-1425هـ/2005م-ص: 389.

³ - أبو حجر أحمد-التفسير العلمي للقرآن في الميزان-دار قتيبة-بيروت-لبنان-ط: 01-1411هـ/1991م-ص: 66.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

سباقاً إلى بيانها وكشفها للناس، وهنا يؤكد الباحثون على أن ما يُعتبر إعجازاً علمياً ينبغي أن يكون معتمداً على حقيقة علمية ثابتة و يقينية لا تحتمل الشك أو النقض، بخلاف النظرية العلمية التي تكفي في التفسير العلمي لكنها لا يمكن أن تثبت لنا إعجازاً علمياً. فالتفسير العلمي « لا يعدو أن يكون نوعاً من المطابقة بين الإشارات العلمية التي وردت في القرآن الكريم، وكشوف الآخرين لبعض السنن والقوانين الكونية »¹. وبالتالي فهو يدخل في إطار منهج التفسير بالرأي، يحتكم إلى شروطه، ولا يكون مُسلماً به في كل الأحوال.

والنظرية العلمية يعرفها أهل الاختصاص بأنها: « مجموعة فروض قابلة للتعديل والتطور، وتقبل إضافة عناصر تقبلها »²، لذلك فهي محتملة للتغيير. أما الحقيقة العلمية فهي تدخل في مجال القطع وعدم احتمال الشك؛ لأنها وصف يعكس المشاهدات الكونية على ما هي عليه في الواقع.

وعلى هذا فكل من النظرية والحقيقة العلميتين تدخلان في حيز منهج العلم التجريبي، لأنهما ينطلقان من ملاحظة علمية يعقبها افتراض تؤكد التجربة أو المكاشفة المعتمدة على وسائل طورتها التجربة والبحث العلمي، وكل أهل زمان قد اختصوا بتطوير جانب منها؛ لذا كان العلم التجريبي بناءً تراكمياً يستفيد كل جيل من الذي يعقبه، وهكذا نجد في خصوص الحقيقة العلمية أنها لا تختلف من تفسير الرازي مثلاً إلى تفسير العلماء المعاصرين إلا في تطور نسبة الكشف عن تلك الظاهرة المفسرة من خلال آيات القرآن الكريم.

ج- اهتمام المفسرين بمنهج التفسير العلمي:

يجد الناظر في كتب التفسير أنه لم يخل كتاب منها من إشارات يمكن أن تُحمل على منهج التفسير العلمي سواء من المتقدمين أو المتأخرين، رغم

¹ - عدنان زرزور - علوم القرآن وإعجازه - ص: 395.

² - عبد السلام حمدان - الإعجاز العلمي في القرآن الكريم - دار الآفاق - غزة - فلسطين - ط: 02 - 1423هـ / 2002م - ص: 109.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

الخلاف القائم حول قبول هذا النهج من الجانب النظري، وذلك أن القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد للخلق، تنوعت موضوعاته لتحقيق تمام تلك الهداية للناس أجمعين؛ فكان خطابه مشتملاً على آيات كونية مما يعرفون ومما لم تصل إليها حواس إدراكهم.

ويُعتبر الإمام الغزالي (ت: 505هـ) من أوائل المتكلمين في هذا النوع إلى عهده، حيث بسط القول في هذا الموضوع في كتابه: "إحياء علوم الدين"، و"جواهر القرآن"، فعقد في أولهما باباً في "فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل"، نقل فيه بعض الآثار والأقوال التي استظهر منها ما يريده من أن القرآن منبع العلوم الدينية والكونية وأن فيه إشارات إلى مجامع العلوم كلها، وأن « كل ما أشكل فهمه على النظر واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه، يختص أهل الفهم بدركها »¹.

ويزيد الإمام الغزالي هذه الفكرة تفصيلاً وبياناً في كتابه "جواهر القرآن"، فيقول: « ثم هذه العلوم ما عددناها وما لم نعدّها ليست أوائلها خارجة عن القرآن؛ فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى .. فمن أفعال الله تعالى وهو بحرُ الأفعال مثلاً الشفاء والمرض، كما قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: 80]، وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه .. »².

¹ - الغزالي محمد أبو حامد- إحياء علوم الدين - دار المعرفة-بيروت-لبنان-ج: 01/ص: 289.

² - الغزالي محمد أبو حامد- جواهر القرآن ودرره-ص: 45، 46.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

يقول محسن عبد الحميد معلقاً على كلام الغزالي: « ولا يجب أن نعتقد أن الغزالي يقول بوجود كل العلوم في القرآن بالفعل، بل يعتقد أن فيه موازين كل العلوم، وكذلك مفاتيح كل العلوم »¹.

والمأمل في كلام الغزالي يجد مناسبة في الحديث عن العلوم الكونية في القرآن مع الحديث عن الإشارات الصوفية، وهو ما يوحي لنا بوجود صلة بين هذا المنزع في التفسير وبين التفسير الإشاري القديم من حيث منهج التفسير².

ثم يتأيد هذا المنهج بالفخر الرازي (ت:606هـ) بما ذكره من استطرادات في تفسيره، وسيأتي تخصيص الحديث عنه. وجاء بعد ذلك بدر الدين الزركشي (ت:794هـ) فنصره في كتابه "البرهان في علوم القرآن" بعدة إشارات إلى هذا المنحى، منها قوله: « كل من كان حظه في العلوم أوفر كان نصيبه من القرآن أكثر »³، وعقد فصلاً بعنوان: "في حاجة المفسر إلى الفهم والتبحر في العلوم"⁴، وآخر بعنوان: "في القرآن علم الأولين والآخرين"⁵. وتحدث فيه عن شمولية الاستنباط من القرآن لعلوم أخرى. وكذلك جلال الدين السيوطي (ت:911هـ) فقرر ذلك وتوسع فيه في كتابه "الإتقان في علوم القرآن"، و: "الإكلیل في استنباط التنزيل".

¹ - محسن عبد الحميد- دراسات في أصول تفسير القرآن- دار الثقافة- الدار البيضاء- المغرب- ط: 02-1404/هـ 1984م-ص: 147.

² - ينظر: المحتسب عبد المجيد عبد السلام- اتجاهات التفسير في العصر الراهن- مكتبة النهضة الإسلامية- عمان- الأردن- ط: 03-1402/هـ 1982م-ص: 247.

³ - الزركشي بدر الدين- البرهان في علوم القرآن- ت: محمد أبو الفضل إبراهيم- مكتبة دار التراث- القاهرة- د.ت- ج: 02/ص 25. وينظر: محسن عبد الحميد- المرجع نفسه- ص: 148.

⁴ - الزركشي بدر الدين- البرهان في علوم القرآن- ج: 02/ص: 153.

⁵ - الزركشي بدر الدين- المرجع نفسه- ج: 02/ص: 181.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

ثم انتشرت المؤلفات والتفاسير الخاصة بهذا النهج في العصور المتأخرة كثرةً وقفت حاجزاً أمام كل من يحاول منعه أو رفض التعامل به؛ لطبيعة العصور المتأخرة وانفتاحها الكبير على حضاراتٍ قامت على العلم التجريبي وتطورت به. لكن هذه الدراسات تتفاوت في قيمة أصالتها ومادتها العلمية، ولذا لجأ كثير من المتأخرين إلى محاولة وضع قواعد عامة لضبط هذا النهج من أن يخرج عن غرضه ومقصده النبيل.

والخلاصة التي يمكن الخروج بها من بحث جهود المفسرين في الاشتغال بمنهج التفسير العلمي هو أن اعتماده لم يكن بالشأن الحديث، بل كان نتاج انفتاح على حركة العلوم التجريبية في كل عصر من عصور أولئك المفسرين، وهو النهج نفسه الذي لم يزل مستمراً إلى وقتنا هذا.

6- انفتاح تفسير الرازي على العلوم التجريبية:

أ- القيمة العلمية لتفسير "مفاتيح الغيب":

يعتبر فخر الدين الرازي¹ من أشهر المفسرين، وقد عاش في منتصف القرن السادس للهجرة، وبرع في علوم كثيرة منها علم الكلام وأصول الفقه والفقه الشافعي، وعلوم اللغة والتفسير، وحاز على حظ وافر من علوم الحكمة اليونانية، وعُرف عنه دفاعه عن النهج الأشعري في العقيدة في وجه المعتزلة، يقول عنه محمد الفاضل ابن عاشور (ت: 1390هـ): «أصبحت طريقته المنهج الثقافي التعليمي الذي عم أقطار الإسلام، وسرى في لغات الثقافة الإسلامية

¹ - هو: محمد بن عمر بن الحسين التيمي البكري، فخر الدين الرازي، الإمام، أصله من طبرستان، ولد في الري سنة: 544هـ، يقال له: ابن خطيب الري، رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخرسان، وأتقن عدة علوم توفي سنة: 606هـ. [عادل نويهض - معجم المفسرين - مؤسسة نويهض الثقافية - بيروت - لبنان - ط: 03-1409/1988م - ج: ص: 596].

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

كلها على توالي العصور، ومن هنالك أصبح معروفاً بلقب "الإمام" إذا أطلق عند المتكلمين والأصوليين انصرف إليه ¹.

ومن أهم تجليات ثقافته الموسوعية كتابه في التفسير وهو "مفاتيح الغيب"، حيث يعتبر أهم أعمال الرازي العلمية، وهو تفسير شامل ومستوعب لكل القرآن، نهج فيه طريقة التفصيل واستيعاب الآية بالتفسير عن طريق إيراد المسائل المتعلقة بها بدءاً باللغة، ثم يورد ما اقتضاه مقام الآية من المباحث الفقهية والعقدية والفلسفية والإشارات الكونية، ولذا يلحق في تصنيفه المنهجي بمنهج التفسير بالرأي.

وقد لاقى تفسير الرازي ردوداً فعل متفاوتة من حيث قبول مادته العلمية أو انتقادها، وهو ما ظهر في شكل أحكام مجملّة على تفسير ككل، ومن ذلك العبارة التي تنسب لابن تيمية (ت:726هـ): "فيه كل شيء إلا التفسير". وهذه العبارة كررها كثير من أهل العلم بعد ابن تيمية، واشتهرت في كتب التراجم حتى إنها في بعض الأحيان تطلق دون نسبة إلى قائل معين.

قال الصفدي (ت:764هـ)-وهو ممن عاصر ابن تيمية ورآه-: «وقلت يوماً للشيخ الإمام العلامة قاضي القضاة أبي الحسن علي السبكي: قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية -وقد ذكر تفسير الإمام-: "فيه كل شيء إلا التفسير"، فقال قاضي القضاة: ما الأمر كذا، إنما فيه مع التفسير كل شيء ²».

وقال أبو حيان (ت:745هـ): «وقد تكلم المفسرون هنا في حقيقة النسخ الشرعي وأقسامه .. وطولوا في ذلك. وهذا كله موضوعه علم أصول الفقه، فيبحث في ذلك كله فيه. وهكذا جرت عادتنا: أن كل قاعدة في علم من العلوم

¹ - ابن عاشور محمد الفاضل - التفسير ورجاله - دار السلام - القاهرة - مصر - ط: 01-1429هـ/2008م - ص: 77، 78.

² - الصفدي صلاح الدين - الوافي بالوفيات - دار إحياء التراث - بيروت - لبنان - ج: 04/ص: 179.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

يرجع في تقريرها إلى ذلك العلم، ونأخذها في علم التفسير مسلمة من ذلك العلم، ولا نطول بذكر ذلك في علم التفسير، فنخرج عن طريقة التفسير، كما فعله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، المعروف بابن خطيب الري، فإنه جمع في كتابه في التفسير أشياء كثيرة طويلة، لا حاجة بها في علم التفسير. ولذلك حكى عن بعض المتطرفين من العلماء أنه قال: فيه كل شيء إلا التفسير»¹.

وقال السيوطي (ت:911هـ): «قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها، وخرج من شيء إلى شيء، حتى يقضي الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية .. ولذلك قال فيه بعض العلماء: فيه كل شيء إلا التفسير»².

ومن المتأخرين قول رشيد رضا (ت:1354هـ) في تفسير المنار: «وقد زاد الفخر الرازي صارفاً آخر عن القرآن، هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت عليه في عهده، كالهئية الفلكية اليونانية وغيرها»³.

والسبب في هذا الحكم على تفسير الرازي وعلى غيره من المواقف المنتقدة له يرجع إلى سببين:

- الأول: هو توظيفه للعلوم الحكيمة السائدة في عصره، وهي في نظير العلوم التجريبية في الزمن الحاضر، حيث شغلت مساحة معتبرة من تفسيره، رغم أنها لم تكن مقصودة أصالة بالتفسير عنده.

لكنه كان يدافع عن نهجه في التفسير عند كل فرصة تسمح له بذلك، ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

¹ - أبو حيان محمد بن يوسف - البحر المحيط - ج:01/ص:547..

² - السيوطي جلال الدين - الإتيقان في علوم القرآن - ت: سعيد المندوب - دار الفكر - بيروت - لبنان - ط:01-1416هـ / 1996م - ج:02/ص:501.

³ - رشيد رضا محمد - تفسير المنار - دار المنار للطباعة والنشر - بيروت - لبنان - ط:01-1366هـ / 1948م - ج:01/ص:07.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ
مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴿[الأعراف: 54] تَعَرَّضَ لبيان حركة الأفلاك وصورها ومدى
حركات الكواكب وذلك بشيء من التفصيل الذي يدخل في علم الفلك¹، ثم
استغل الفرصة ليعرج على ما يمكن أن ينقدح في ذهن القارئ من إشكالٍ مرتبط
بعدم اعتياده على هذا الاستطراد في كتب التفسير، فقال: « وربما جاء بعض
الجهال والحمقى وقال إنك أكثر في تفسير كتاب الله من علم الهيئة والنجوم،
وذلك على خلاف المعتاد؛ فيقال لهذا المسكين: إنك لو تأملت في كتاب الله
حق التأمل لعرفت فساد ما ذكرته .. »². ثم أتى على مجموعة من البراهين يقرر
فيها فساد الاعتراض عليه في توظيف علم الهيئة والنجوم في التفسير، وهي كلها
تصلح أدلة على صحة منهج التفسير العلمي في العصر الحاضر.

- الثاني: هو جريه في نهج التفسير على خلاف النهج السائد في عصره
للتأليف في التفسير، وهو طريقة المشاركة، حيث اشتهرت تفاسير المعتزلة ومن
تأثر بهم وكان يغلب عليها طابع الاختصار وغلبة البحث اللغوي والتعمق في
قضاياها، وكان تفسير "الكشاف" للزمخشري (ت: 538هـ) هو عمدة المشاركة.

وفي النص السابق من كلام الرازي الذي دافع فيه عن نهجه في إقحام
العلوم الحكيمة في التفسير ختم ذلك بكلمة تشير إلى هذا المحمل، فقال: « فإذا
كان الأمر كذلك ظهر أنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب لهذه الفوائد والأسرار، لا
لتكثير النحو الغريب والاشتقاقات الخالية عن الفوائد والحكايات الفاسدة »³.

ويلخص صاحب كتاب "التفسير ورجاله" منهج الرازي والحكم على
تفسيره بقوله: « على أن الفخر الرازي لم يكن في ما أورد من مسائل العلوم

¹ - ينظر: ابن عاشور محمد الفاضل - التفسير ورجاله - ص: 83.

² - الرازي فخر الدين - مفاتيح الغيب - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - 1421هـ / 2000م -
ط: 01-ج: 14/ص: 99.

³ - الرازي فخر الدين - مفاتيح الغيب - ج: 14/ص: 99، 100.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

جالباً إياها على وجه الاستكثار والاستطراد، وإنما هو سائر في ذلك على طريقة قويمه، تسير على اعتبار أن المطلوب الأول إنما هو معنى الآية؛ إذ يأخذ في بيان مفادها الأصلي، مُوقِّفاً على محل استخراجها من التركيب بحسب قوانين العربية ونكت بلاغتها، مقتصداً في ذلك غير مُسْرِف، ثم يذهب في تربية ذلك المعنى وتوسيعه مذهب الإبانة والتفصيل، مجتهداً في ربط أوصال الكلام، وإحكام تسلسل المعاني، والتنبيه على تولد بعضها من بعض، حتى تنتهي بذاتها إلى المساس بمطالب حِكْمِيَّة ومسائل علمية، يسوقها حينئذ على أنها حلق متممة سلسلة المعنى المرتبط بأصل المفاد القرآني على أحكم وجه من الربط»¹.

فكان الرازي في تفسيره مستجمعا لأغراض شتى تُقَصِّدُ للتفسير، إذ لم يُهْمَلِ البحث اللغوي، ولم يفرط في خدمة الدرس العقدي ولا الفقهي، زيادةً على ما أتى به من الإشارات العلمية، حيث لم تكن مقصودة أصالة بالتفسير، وبذلك يعلم عدم صحة الحكم السابق على هذا التفسير.

ب- القرآن هو مصدر العلوم عند الرازي:

كان الرازي حاملاً لفكرة مهمة استدعته لجلب هذه العلوم في التفسير، هي أن القرآن الكريم هو أصل العلوم كلّها ومنبؤها الذي تتغذى منه، وبالتالي فكلُّ ما اندرج في القرآن فهو الأنفع للناس والأصلح لهم في علومهم، وفي ذلك يقول: «القرآن أصل العلوم كلها، فعلم الكلام كله في القرآن، وعلم الفقه كله مأخوذ من القرآن، وكذا علم أصول الفقه، وعلم النحو واللغة، وعلم الزهد في الدنيا وأخبار الآخرة، واستعمال مكارم الأخلاق»². وهي في الحقيقة ردة فعل على إغراق المعتزلة في جلب الفلسفة اليونانية وكثرة توظيف المذاهب الكلامية، مما سبب الجفاء عن أساليب القرآن، وكانت حجاباً عن الوصول إلى أسرار القرآن، ومن أسرار العجيبة هي إشارته الإعجازية عن الكون.

¹ - ابن عاشور محمد الفاضل - التفسير ورجاله - ص: 86.

² - الرازي فخر الدين - المرجع نفسه - ج: 02/ ص: 107.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

ويقول في تفسير فاتحة سورة الفرقان: « ﴿ تَبَارَكَ ﴾: ومعناه كثرة الخير والبركة، ثم ذكر عقبه أمر القرآن، دل ذلك على أن القرآن منشأ الخيرات وأعم البركات، لكن القرآن ليس إلا منبعاً للعلوم والمعارف والحكم، فدل هذا على أن العلم أشرف المخلوقات، وأعظم الأشياء خيراً وبركة¹. وفي تفسير هذه الآية بياناً لنظرة الرازي عن القرآن وكونه منبعاً لكل العلوم، فلذلك كان اعتماده في التفسير على العلوم التجريبية امتداداً لنظريته للقرآن الكريم.

ويؤكد محسن عبد الحميد هذا التوجه عند الرازي بعدما قام بدراسة تفسيره، فقال: « والذي توصلتُ إليه بناء على دراستي الكاملة لتفسير الرازي أنه لم يذكر أن في القرآن كل العلوم والمعارف الإنسانية بالفعل، بل إنه مشى على أساس أن القرآن يجلب نظرنا إلى القوانين المتنوعة المنشورة في الكون، فما علينا إلا أن نفهمها وندرکها، ولا نقدر على فهمها ودرکها ما لم نطلع على العلوم والمعارف، فعلى ضوءها نفهم كثيراً من أسرار القرآن². »

ج - مصادر العلم التجريبي عند الرازي:

يعتبر تفسير الرازي مادة غنية بالمعلومات في شتى العلوم، وظّف فيها مصادر كثيرة أثرت كتابه، وجعلته مرجعاً هاماً للمفسرين من بعده. ولذا يصعب حصر مصادره خصوصاً أنه لم يلتزم التصريح بكل معلومة ينقلها على عادة التأليف في تلك الفترة.

ومن العلماء الذين تحدثوا عن حصر مصادر الرازي وإن على سبيل العموم، ما ذكره الإمام الشاطبي (ت: 790هـ)، عن شيوخه، قال: « حدثني الأستاذ أبو علي الزواوي عن شيخه الأستاذ الشهير أبي عبدالله المسقر أنه قال: إن تفسير ابن الخطيب احتوى على أربعة علوم، نقلها من أربعة كتب، مؤلفوها كلهم معتزلة: فأصول الدين نقلها من كتاب الدلائل لأبي الحسين.

¹ - الرازي فخر الدين - مفاتيح الغيب - ج: 24/ص: 40.

² - محسن عبد الحميد - دراسات في أصول تفسير القرآن - ص: 148.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجا-.....أ.مراد بلخير

وأصول الفقه نقلها من كتاب المعتمد لأبي الحسين أيضا، وهو أحد نظار المعتزلة.. قال: والتفسير من كتاب القاضي عبد الجبار. والعربية والبيان من الكشف للزمخشري¹.

وهذه المصادر الاعتزالية كان أخذ الرازي منها على جهتين: جهة أخذ الشبهات والرد عليها؛ لأن الرازي كان من أشهر من تولى الرد على شبه المعتزلة، وجهة الاستفادة منها في خصوص النواحي اللغوية. ولا يخفى ما في هذه الكتب من الإشادة بالعقل ودوره المحوري في الفهم والتحليل، وهو ما أكسب الرازي اندفاعا نحو الإغراق في التحليل العقلي لقضايا العقائد.

أما عن مصادره في ما نحن فيه من العلوم التجريبية، فهي تتنوع من المؤلفات الإسلامية وغير الإسلامية، وكذا ما اكتسبه من ثقافة في مراحل الطلب والرحلة.

ويذكر أصحاب التراجم في ترجمته أنه مكث مدة طويلة عند "المجد الجيلي" بعد وفاة والده، وأخذ عنه علم الكلام والحكمة².

كما أنه في حدود سنة ثمانين وخمسمائة مر على "سرخس" في طريقه إلى "بخارى" وكان فيها طبيب يدعى "عبد الرحمن بن عبد الكريم السرخسي"، فأكرم الرازي، فأراد الرازي أن يجزيه بشيء يستفيد منه، فشرح له "القانون" لابن سينا (ت: 427هـ)، وهذا يدل على أن الرازي في السادسة والثلاثين من عمره كان طبيا ماهرا³. ويذكرون في مؤلفات الرازي أيضا أن له شرحا على كتاب القانون في الطب لابن سينا.

¹ - الشاطبي أبو إسحاق - الإفادات والإنشادات - ت: محمد أبو الأجفان - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان - ط: 01-1403هـ/1983م - ص: 100، 101.

² - ابن خلكان شمس الدين - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - ت: إحسان عباس - دار صادر - بيروت - لبنان - ط: 01-1971م - ج: 04/ص: 250.

³ - ينظر: العلواني طه جابر - الإمام فخر الدين الرازي ومصنفاته - دار السلام - القاهرة - مصر - ط: 01-1431هـ/2010م - ص: 75.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

وقد كان ابن سينا حاضراً بقوة في تفسير الرازي في خصوص القضايا المتعلقة بالطب والفلك، حيث نقل عنه في ثلاثة عشر موضعاً في التفسير الكبير، من الكتب الآتية: "الأوسط"¹، و"الشفاء"²، و"الإشارات"³، و"رسالة في حدود الأشياء"⁴.

كما أن الرازي أخذ من كتب "أبي البركات هبة الله البغدادي" (ت:550هـ)، وهو طبيب تحول من الإسلام إلى اليهودية⁵، ونقل عنه من كتاب "المعتبر في الحكمة"⁶، وله أيضاً كتب في الفلك والطب منها: "رسالة في العقل وماهيته"، و"مقالة في سبب ظهور الكواكب ليلاً واختفائها نهاراً"، و"مختصر في التشريح اختصره من كلام جالينوس"⁷. لعله يكون قد استفاد منها دون التصريح بها. أما في علوم الفلك والطبيعة والرياضيات؛ فيبدو أنه استفاد مما اطلع عليه من مؤلفات مشهورة في هذا الميدان، ككتب إقليدس، وله كتاب "مصادرات إقليدس"، و"رسالة في الهيئة"⁸، وغيرها مما يذكره أهل التراجم.

د- منهج قبول العلم التجريبي أو رده عند الرازي:

يبدو أن الرازي لم يكن يُسلّم بسهولة لأي تحليل علمي، ما لم يتوافق مع مقتضيات النص الشرعي أولاً، ومع مسلمات العلم، ومن الأمثلة على ذلك:

¹ - ينظر: الرازي فخر الدين - مفاتيح الغيب - ج: 01/ص: 29.

² - ينظر: الرازي فخر الدين - المرجع نفسه - ج: 04/ص: 163. و: ج: 21/ص: 97.

³ - ينظر: الرازي فخر الدين - المرجع نفسه - ج: 13/ص: 12.

⁴ - ينظر: الرازي فخر الدين - المرجع نفسه - ج: 30/ص: 131.

⁵ - ينظر: إسماعيل باشا - هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين - دار إحياء التراث العربي - د.ت - بيروت - لبنان - ص: 506.

⁶ - ينظر: الرازي فخر الدين - المرجع نفسه - ج: 30/ص: 149.

⁷ - كحالة عمر رضا - معجم المؤلفين - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان - ط: 01-1414هـ/1993م - 1414هـ/1993م - ج: 04/ص: 59.

⁸ - ينظر: العلواني طه جابر - الإمام فخر الدين الرازي ومصنفاته - ص: 209.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

أ- في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد:12] يناقش الرازي من حمل تفسير ظاهرة حدوث البرق على تفاعل عوامل بيئية، فيردّه بمسلمات العلم التجريبي، ويُرجع تفسيره إلى مطلق قدرة الله، فيقول: «اعلم أن حدوث البرق دليل عجيب على قدرة الله تعالى، وبيانه أن السحاب لا شك أنه جسم مركب في أجزاء رطبة مائية، ومن أجزاء هوائية ونارية، ولا شك أن الغالب عليه الأجزاء المائية، والماء جسم بارد رطب، والنار جسم حار يابس، وظهور الضد من الضد التام على خلاف العقل؛ فلا بد من صانع مختار يُظهر الضد من الضد.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: إن الريح احتقن في داخل جرم السحاب واستولى البرد على ظاهره فانجمد السطح الظاهر منه، ثم إن ذلك الريح يمزقه تمزيقاً عنيفاً فيتولد من ذلك التمزيق الشديد حركة عنيفة، والحركة العنيفة موجبة للسخونة وهي البرق؟

والجواب: أن كل ما ذكرتموه على خلاف المعقول. وبيانه من وجوه. الأول: أنه لو كان الأمر كذلك لوجب أن يقال: أينما يحصل البرق فلا بد وأن يحصل الرعد، وهو الصوت الحادث من تمزق السحاب، ومعلوم أنه ليس الأمر كذلك؛ فإنه كثيراً ما يحدث البرق القوي من غير حدوث الرعد.

الثاني: أن السخونة الحاصلة بسبب قوة الحركة مقابلة للطبيعة المائية الموجبة للبرد، وعند حصول هذا العارض القوي كيف تحدث النارية؟ بل نقول: النيران العظيمة تنطفئ بصب الماء عليها، والسحاب كله ماء فكيف يمكن أن يحدث فيه شعلة ضعيفة نارية؟

الثالث: من مذهبكم أن النار الصرفة لا لون لها البتة، فهب أنه حصلت النارية بسبب قوة المحاكة الحاصلة بأجزاء السحاب، لكن من أين حدث ذلك

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

اللون الأحمر ؟ فثبت أن السبب الذي ذكره ضعيف، وأن حدوث النار الحاصلة في جرم السحاب مع كونه ماء خالصاً لا يمكن إلا بقدره القادر الحكيم¹.
وبغض النظر عن سلامة رد الرازي على ما استجلبه من أقوال في التفسير العلمي المعاصر، تبقى لهذا المفسر سلامة منهج التعامل مع تفسير الظواهر الكونية، وأن ليس كل ما يَتِمُّ سَوِّقُهُ في تحليلها محلُّه التسليم، خصوصاً في ما يتعلق بتفسير القرآن.

ب- في قوله تعالى: ﴿وَوَضَّيْنَا لِلْإِنْسَانِ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ الآية [الأحاف:15] يستخلص الرازي أقل مدة الحمل على طريقة تفسير القرآن بالقرآن وبالأثار عن الصحابة، ثم يعضد ذلك بالتجربة الطبية في إثبات هذا الأمر، مع استطرادات علمية حول كيفية تشكُّل الجنين ومراحل تكوينه، فيقول: « دلت الآية على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأنه لما كان مجموع مدة الحمل والرضاع ثلاثون شهراً، قال: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة:233]، فإذا أسْقَطْتَ الحولين الكاملين وهي أربعة وعشرون شهراً من الثلاثين، بقي أقل مدة الحمل ستة أشهر. روي عن عمر أن امرأة رُفِعَتْ إليه، وكانت قد ولدت لستة أشهر، فأمر برجمها، فقال علي: " لا رجم عليها"²، وذكر الطريق الذي ذكرناه، وعن عثمان أنه همَّ بذلك، فقرأ ابن عباس عليه ذلك. واعلم أن العقل والتجربة يدلان أيضاً على أن الأمر كذلك، قال أصحاب التجارب: إن لتكوين الجنين زماناً مقدراً، فإذا تضاعف ذلك الزمان تحرك الجنين، فإذا انضاف إلى ذلك المجموع مثله انفصل الجنين عن الأم، فلنفرض أنه يتم خلقه في ثلاثين يوماً، فإذا تضاعف ذلك الزمان حتى صار ستين تحرك الجنين؛ فإذا تضاعف إلى هذا

¹ - الرازي فخر الدين - مفاتيح الغيب - ج:19/ص:20.

² - ينظر: مالك بن أنس - موطأ الإمام مالك - ت:محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - مصر - د.ت - ج:02/ص:825.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجا-.....أ.مراد بلخير

المجموع مثلاه، وهو مائة وعشرون حتى صار المجموع مائة وثمانين وهو ستة أشهر؛ فحينئذ ينفصل الجنين، ولنفرض أنه يتم خلقه في خمسة وثلاثين يوماً فيتحرك في سبعين يوماً، فإذا انضاف إليه مثلاه وهو مائة وأربعون يوماً صار المجموع مائة وثمانين وعشرة أيام، وهو سبعة أشهر انفصل الولد، ولنفرض أنه يتم خلقه في أربعين يوماً، فيتحرك في ثمانين يوماً، فينفصل عند مائتين وأربعين يوماً، وهو ثمانية أشهر، ولنفرض أنه تمت الخلقة في خمسة وأربعين يوماً، فيتحرك في تسعين يوماً، فينفصل عند مائتين وسبعين يوماً، وهو تسعة أشهر، فهذا هو الضبط الذي ذكره أصحاب التجارب.. وزعم أبو علي بن سينا أنه شاهد ذلك، فقد صار أقل مدة الحمل بحسب نص القرآن وبحسب التجارب الطبية شيئاً واحداً، وهو ستة أشهر...¹.

فترتيب الرازي للتجربة الطبية على النص والأثر دليل على أنه لم يكن متجاوزاً للآثار، ولا متعدداً لها في تقرير التفسير العلمي، بل كان يبنى على النص كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، وهو النهج السليم في هذا النوع من التفسير.

7- تطبيقات من تفسير الرازي في الانفتاح على العلوم التجريبية:

أ- آيات الأفلاك والكواكب:

في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ الآية [البقرة: 164]. اغتنم الرازي تفسير هذه الآية ليعرج على عدة قضايا من علوم الفلك، فقال: «الكلام في أحوال السموات على الوجه المختصر الذي يليق بهذا الموضع مُرتَّبٌ في فصول»²، والقضايا التي تعرض لها هي ترتيب الأفلاك وعددها:

¹ - الرازي فخر الدين - المرجع نفسه - ج: 28/ص: 14.

² - الرازي فخر الدين - مفاتيح الغيب - ج: 04/ص: 163.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

1- ترتيبُ الأفلاك: قال: « أقربها إلينا كرة القمر، وفوقها كرة عطارد، ثم كرة الزهرة، ثم كرة الشم، ثم كرة المريخ، ثم كرة المشتري، ثم كرة زحل، ثم كرة الثوابت، ثم الفلك الأعظم »¹.

وقد ذكر ما يوصلُ إلى هذا التحديد، وأنَّ سبيله المنهج التجريبي المعتمد على الملاحظة أساساً والفرض عليها، فقال: « ذكروا في طريق معرفة هذا الترتيب ثلاثة أوجه. الأول: السير، وذلك أن الكوكب الأسفل إذا مر بين أبصارنا وبين الكوكب الأعلى فإنهما يُبصران ككوكب واحد، ويتميز السائر عن المستور بلونه الغالب، كصفرة عطارد، وبياض الزهرة، وحمرة المريخ، ودرية المشتري، وكمودة زحل، ثم إن القدماء وجدوا القمر يكسف الكواكب الستة، وكثيراً من الثوابت في طريقه في ممر البروج، وكوكب عطارد يكسف الزهرة، والزهرة تكسف المريخ وعلى هذا الترتيب، فهذا الطريق يدل على كون القمر تحت الشمس لانكسافها به..

الثاني: اختلاف المنظر فإنه محسوس للقمر وعطارد والزهرة، وغير محسوس للمريخ والمشتري وزحل، وأما في حق الشمس فقليل جداً، فوجب أن تكون الشمس متوسطة بين القسمين، وهذا الطريق بيّن جداً لمن اعتبر اختلاف منظر الكواكب، وشاهده على الوجه الذي حكيناه، فأما من لم يمارسه؛ فإنه يكون مقلداً »².

2- أعداد الأفلاك: وخلص إلى أنها تسعة، وهي التي أثبتها الرصد، مع الإشارة إلى أن هذه الكواكب كروية الشكل، زيادة إلى تفاصيل اعتمد في نقلها على كتب ابن سينا وبطليموس³.

ب- آيات تزئين السماء:

¹ - الرازي فخر الدين - المرجع نفسه - ج: 04/ص: 163.

² - الرازي فخر الدين - المرجع نفسه - ج: 04/ص: 163.

³ - ينظر: الرازي فخر الدين - المرجع نفسه - ج: 04/ص: 163، 164.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

في قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصفاء:06]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك:05].

بحث الرازي في هذين الموضعين وَصَفَ القرآن لتزيين السماء، ففي الآية الأولى وَصَفَ تزيينها بالكواكب، وفي الثانية بالمصابيح، قال الرازي: «والمصابيحُ الشُّرُجُ، سُميت بها الكواكب، والناس يزينون مساجدهم ودورهم بالمصابيح، فقليل: ولقد زينا سقف الدار التي اجتمعت فيها بمصابيح، أي: بمصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة، وهو تزيين السماء الدنيا بهذه الكواكب»¹.

أما عن كيفية كون الكواكب زينةً للسماء، يجيب الرازي بأربعة أوجه كلها معتمدة على التفسير بمنهج التفسير العلمي القائم على الملاحظة الكونية فيقول: «أن النور والضوء أحسن الصفات وأكملها، فَإِنَّ تَحْصُلَ هذه الكواكب المشرقة المضئية في سطح الفلك لا جرم بقي الضوء والنور في جرم الفلك بسبب حصول هذه الكواكب فيها، قال ابن عباس: ﴿بَزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ أي: بضوء الكواكب. الوجه الثاني: يجوز أن يُراد أشكالها المتناسبة المختلفة، كشكل الجوزاء وبنات نعش والثريا وغيرها. الوجه الثالث: يجوز أن يكون المراد بهذه الزينة كيفية طُلُوعها وغروبها. الوجه الرابع: أن الإنسان إذا نظر في الليلة الظلماء إلى سطح الفلك، ورأى هذه الجواهر الزواهر مشرقةً لامعة متألثة على ذلك السطح الأزرق؛ فلا شك أنها أحسن الأشياء وأكملها في التركيب والجوهر، وكل ذلك يُفيد كونَ هذه الكواكب زينةً»².

بينما اكتفى المفسرون الآخرون بالتركيز على الجوانب اللغوية في تفسير الآية، وأنها في سياق الحث على النظر في قدرة الله، وبيان أن خلق

¹ - الرازي فخر الدين - مفاتيح الغيب - ج:26/ص:105،104.

² - الرازي فخر الدين - المرجع نفسه - ج:26/ص:105.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

السموات حاصل في غاية الحسن والبهاء، وهو أثر بيان خلوها عن شائبة العيب والقصور¹.

ج- آية إنزال الميزان والحديد:

في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد:25].

يُبرز الرازي من خلال تفسير هذه الآية مدى استحكام نظريته على المنهج التجريبي في خصوص وظائف الميزان والحديد في حياة الناس وشؤونهم الدينية المختلفة، ولذا نزل الامتنان الإلهي به.

قال الرازي: « ذكر في منافع الميزان أن يقوم الناس بالقسط .. وأما الحديد ففيه البأس الشديد، فإن آلات الحروب تُتخذ منه، وفيه أيضاً منافع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ [الأنبياء:80]. ومنها أن مصالح العالم إما أصول وإما فروع، أما الأصول فأربعة: الزراعة والحياسة وبناء البيوت والسلطنة، وذلك لأن الإنسان مضطراً إلى طعام يأكله وثوب يلبسه وبناء يجلس فيه، والإنسان مدني بالطبع؛ فلا تتم مصلحته إلا عند اجتماع جمع من أبناء جنسه يشتغل كل واحد منهم بمهم خاص، فحينئذ ينتظم من الكل مصالح الكل، وذلك الانتظام لا بد وأن يفضي إلى المزاومة، ولا بد من شخص يدفع ضرر البعض عن البعض، وذلك هو السلطان، فثبت أنه لا تنتظم مصلحة العالم إلا بهذه الحروف الأربعة، أما الزراعة فمحتاجة إلى الحديد، وذلك في كرب الأراضي وحفرها، ثم عند تكون هذه الحبوب وتولدها لا بد من خبزها وتنقيتها، وذلك لا يتم إلا بالحديد، ثم الحبوب لا بد من طحنها وذلك لا يتم إلا بالحديد، ثم لا بد من خبزها ولا يتم إلا بالنار، ولا بد من المقدحة الحديدية، وأما الفواكه فلا بد من تنظيفها عن قشورها، وقطعها على الوجوه الموافقة للأكل

¹ - ينظر: الألوسي شهاب الدين - روح المعاني - ج:29/ص:08.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

ولا يتم ذلك إلا بالحديد، وأما الحياكة فمعلوم أنه يحتاج في آلات الحياكة إلى الحديد ثم يحتاج في قطع الثياب وخياطتها إلى الحديد، وأما البناء فمعلوم أن كمال الحال فيه لا يحصل إلا بالحديد، وأما أسباب السلطنة فمعلوم أنها لا تتم ولا تكمل إلا بالحديد .. ولو لم يوجد الحديد لاختل جميع مصالح الدنيا، ثم إن الحديد لما كانت الحاجة إليه شديدة، جعله سهل الوجدان، كثير الوجود، والذهب لما قلت الحاجة إليه جعله عزيز الوجود ..¹.

وما ذكره الرازي من تفصيل لفوائد الحديد كله مبني على تجارب الناس في أنماط معيشتهم، واستقصاء لما يصلح به حالهم، وهو عائد كما ذكر للحديد؛ لذا ورد في سياق الامتنان به لشدة الحاجة إليه.

د- آية الخلق في ظلمات ثلاث:

قال تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى تُضَرِّفُونَ﴾ [الزمر: 06].

يتحدث الرازي في تفسير علمي عن حقيقة الظلمات الثلاث التي ذكرها القرآن في وصف مراحل خلق الإنسان، وهو في ذلك معتمد على ما وصل إليه العلم التجريبي مما لم يختلف عليه التفسير العلمي الحديث لهذه الظاهرة، قال الرازي: « وقوله: ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾، قيل: الظلمات الثلاث: البطن، والرحم، والمشيمة. وقيل: الصلب والرحم والبطن²، ثم يشرع في تفصيل علمي مستعينا بحقائق العلم التجريبي.

هذا وقد استفاد العلماء المتأخرون من الآية ما استفاده المتقدمون كالرازي، من أن مراحل تكون الجنين لا بد أن يمر في جو مظلم، حتى لا

¹ - الرازي فخر الدين - مفاتيح الغيب - ج: 29/ص: 211.

² - الرازي فخر الدين - المرجع السابق - ج: 26/ص: 214.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

يحدث أي تشوه أو فساد للجنيين¹. مما يعطي القرآن الكريم عظمة في البيان لأسرار مهمة في الخلق لا يزال العلماء يطورون وسائلهم لكشف جزء منها.
خاتمة:

بعد هذه الجولة في موضوع انفتاح علم التفسير على العلوم التجريبية، يمكن القول إن المفسرين كانوا السبّاقين إلى إبراز مكانة القرآن الكريم في مواكبة تطور العلوم عند البشر من خلال التفسير في ضوء العلم التجريبي، كما أنهم أبدؤا اهتماما كبيرا بالمسائل العلمية والأمور الكونية من منطلق الإشارات القرآنية، وهذا الانفتاح لم يكن بالضرورة محاولة لإدراك الركب أو لتلافي التأخر العلمي، بل كان خصوصا عند فخر الدين الرازي استجابة لمتطلبات المرحلة، وتجاوبا مع التحصيل العلمي الذاتي للمفسر.

كما أن التفسير في ضوء العلوم التجريبية كان متجاوبا مع توسيع مفهوم إعجاز القرآن عند من لم يحضره في جانب اللغة، والأمر الآخر هو أن تلك التفسيرات العلمية قد اتخذت عند المتقدمين شكل الإشارات واللطائف الصوفية، فتأخذ مجراها من حيث المصادقية أو الرفض، على ما سطره أهل القرآن في ضوابطهم وقواعدهم لقبول التفسير.

وفي الأخير، يمكن اعتبار فخر الدين الرازي رائدا من رواد حركة الانفتاح العلمي الإسلامي على العلوم التجريبية من خلال تفسيره، والمطبّق العملي لهذا النهج؛ إذ استطاع بسعة رصيده العلمي أن يثري علم التفسير بحلة علمية جديدة تتجاوز بها الثوب القديم لعلم التفسير، وهو ما أكسب مناوئيه ردة فعل عنيفة اتجاهه، هذا بالرغم من أن عمله يبقى في دائرة الاجتهاد المنهجي الذي يفتح الأفق لمزيد من التقييم لمن بعده من المفسرين؛ للوصول إلى المقصد الأسنى، وهو خدمة كتاب الله عز وجل.

وصلّى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

¹ - ينظر: يوسف الحاج أحمد- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة- مكتبة ابن حجر- دمشق- سوريا- ط: 02-1424هـ/2003م- ص: 125.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

مراجع البحث:

- 1- إسماعيل باشا- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين - دار إحياء التراث العربي-د.ت- بيروت - لبنان.
- 2- الأصبهاني الحسين بن محمد- معجم مفردات القرآن-ت: يوسف البقاعي-دار الفكر-بيروت-لبنان- 1432هـ/2010م.
- 3- الألوسي محمود أبو الفضل - روح المعاني - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان-د.ت.
- 4- أمين الخولي-التفسير: نشأته، تدرجه، تطوره-ت: إبراهيم خورشيد-دار الكتاب اللبناني-بيروت-لبنان-ط: 01-1982م.
- 5- ابن الجوزي جمال الدين أبو الفرج- زاد المسير في علم التفسير-ت: عبد الرزاق المهدي- دار الكتاب العربي-بيروت - ط: 01-1422هـ.
- 6- ابن جزي محمد الكلبي-التسهيل لعلوم التنزيل-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط: 1415هـ/1995م.
- 7- أبو حيان محمد الأندلسي-تفسير البحر المحيط-ت: صدقي محمد جميل-دار الفكر - بيروت-ط: 01-1420هـ.
- 8- ابن خلكان شمس الدين - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان-ت: إحسان عباس-دار صادر- بيروت-لبنان- ط: 01-1971م.
- 9- الذهبي محمد حسين- التفسير والمفسرون- مكتبة وهبة- القاهرة-مصر-د.ت.
- 10- الرازي فخر الدين- مفاتيح الغيب-دار الكتب العلمية- بيروت-لبنان-ط: 01-1421هـ/2000م.
- 11- رشيد رضا محمد- تفسير المنار-دار المنار للطباعة والنشر-بيروت-لبنان-ط: 01-1366هـ/1948م.
- 12- الرومي فهد بن عبد الرحمن - اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري- رسالة دكتوراه-كلية أصول الدين - 1404هـ/1405هـ.
- 13- الزركشي بدر الدين- البرهان في علوم القرآن-ت: محمد أبو الفضل إبراهيم- مكتبة دار التراث-القاهرة-د.ت.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجا-.....أ.مراد بلخير

- 14- الزبيدي محمد مرتضى الحسيني - تاج العروس من جواهر القاموس-ت:حسن نصار-مطبعة حكومة الكويت - الكويت-ط:02-1407ه/1987م
- 15- الزرقاني محمد عبد العظيم-مناهل العرفان في علوم القرآن-دار الكتاب العربي-بيروت-ط:01- 1415ه/1995م.
- 16- ابن سيده علي بن إسماعيل المرسى- المحكم والمحيط الأعظم-ت:عبد الحميد هنداووي-دار الكتب العلمية- بيروت-لبنان-ط:1421ه/2000م.
- 17- السيوطي جلال الدين: ✓ الإتقان في علوم القرآن-ت: سعيد المندوب- دار الفكر- لبنان-ط:01- 1416ه/ 1996م. ✓ الإكليل في استنباط التنزيل-ت: سيف الدين عبد القادر الكاتب-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط:01-1401ه/1981م.
- 19- الشاطبي أبو إسحاق: ✓ الإفادات والإنشادات-ت: محمد أبو الأجفان-مؤسسة الرسالة-بيروت-لبنان- ط:01-1403ه/1983م. ✓ الموافقات في أصول الأحكام-ت:محمد مخلوف-دار الفكر-بيروت-لبنان-د.ت.
- 21- الصباغ محمد بن لطفى- لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير-المكتب الإسلامي-بيروت-لبنان-ط:03- 1410ه/1990م.
- 22- الصفدي صلاح الدين-الوافي بالوفيات- دار إحياء التراث- بيروت-لبنان-د.ت.
- 23- عادل نويهض-معجم المفسرين-مؤسسة نويهض الثقافية-بيروت-لبنان-ط:03-1409ه/1988م.
- 24- ابن عاشور محمد الطاهر-تفسير التحرير والتنوير-دار سحنون-تونس-د.ت.
- 25- ابن عاشور محمد الفاضل- التفسير ورجاله- دار السلام- القاهرة- مصر-ط:01-1429ه/2008م.
- 26- عبد السلام حمدان-الإعجاز العلمي في القرآن الكريم-دار الآفاق-غزة-فلسطين-ط:02-1423ه/2002م.
- 27- عبد الرحمن بدوي- مناهج البحث العلمي-وكالة المطبوعات-الكويت-ط:03-1977م.
- 28- عدنان زرزور- علوم القرآن وإعجازه-دار الأعلام-عمان-الأردن-ط:01-1425ه/2005م.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجا-.....أ.مراد بلخير

29- عدس عبد الرحمن وآخرون-البحث العلمي: مفهومه، أدواته، أساليبه-دار أسامة-الرياض-السعودية-2005م.

30- ابن عطية عبد الحق بن غالب-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز-ت:عبد السلام عبد الشافي-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط:1422ه/2001م.

31- العلواني طه جابر-الإمام فخر الدين الرازي ومصنفاته-دار السلام-القاهرة-مصر-ط:01-1431ه/2010م.

32- العيسوي عبد الفتاح محمد-مناهج البحث العلمي في الفكر الإسلامي والفكر الحديث-دار الراتب الجامعية-بيروت-لبنان-1997م.

33- الغزالي أبو حامد: ✓ إحياء علوم الدين - دار المعرفة-بيروت-لبنان-د.ت.

✓ جواهر القرآن-ت: محمد القباني-دار إحياء العلوم-بيروت-لبنان-ط:01-1985م.

35- ابن فارس أحمد بن زكريا-معجم مقاييس اللغة-ت:عبد السلام هارون-دار الفكر-بيروت-لبنان - 1399ه/1979م.

36- القنوجي صديق بن حسن-أبجد العلوم-ت:عبد الجبار زكار-منشورات وزارة الثقافة-دمشق-سوريا-1978م.

37- كحالة عمر رضا-معجم المؤلفين-مؤسسة الرسالة-بيروت-لبنان-ط:01-1414ه/1993م.

38- مالك بن أنس- موطأ الإمام مالك-ت:محمد فؤاد عبد الباقي-دار إحياء التراث العربي- مصر-د.ت.

39- المحتسب عبد المجيد عبد السلام- اتجاهات التفسير في العصر الراهن- مكتبة النهضة الإسلامية- عمان- الأردن-ط:03-1402ه/1982م.

40- محسن عبد الحميد- دراسات في أصول تفسير القرآن- دار الثقافة- الدار البيضاء- المغرب - ط:02-1404ه/1984م.

41- محيي الدين شيخ زاده-حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط:01-1419ه/1999م.

42- المسعودي أبو الحسن على- مروج الذهب ومعادن الجوهر-ت:أسعد داغر-دار الهجرة-قم-إيران - 1409هـ.

أثر علم التفسير في الانفتاح على العلوم التجريبية. - تفسير الرازي نموذجاً-.....أ.مراد بلخير

43- أبو حجر أحمد- التفسير العلمي للقرآن في الميزان- دار قتيبة-بيروت-لبنان- ط:01-1411هـ/1991م.

44- الوقفي إبراهيم أحمد- تلك حدود الله- وزارة الشؤون الدينية-قطر- 1397هـ/1977م.

45- يوسف الحاج أحمد- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة- مكتبة ابن حجر-دمشق-سوريا- ط:02- 1424هـ/2003م.